صـــــور التوظيف الأســـــطوريّ لشخصية " باتريـــس لومـــومبا " في الشـــــعر الليبي الحديث قـــراءة في نمـــــــــاذج مختارة

د. علي محمد عيسى ، د. رحاب محمد عيسى ، أ. نسيبة سعد الفيتوري .
قســـــم الأدبيات ــ كلية اللغة العربية.
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلاميّـــــة.

الملخص :

هـــذا البحث دراسة لصور التوظيف الأسطوري لشخصية (باتريس لومومبا) عند بعض شـــعراء الشعر الليبي الحديث ، فقد شكل هذا الحضور ظاهرةً مميزةً تستحق الدراسة ، وقد سعت هذه الدراسة إلى معرفة صور توظيف الشعراء لأسطورة الشخصية المستدعاة؛ وقد تناولت الدراسة بداية الشخصية التاريخية لباتريس لومومبا والأساطير المستدعاة الموظفة في شخصية باتريس لومومبا وأوجه التشابه بين هذه الأساطير والشخصية، ثم اتخذت الدراسة اتجاهًا أكثر عمقًا وذلك لمعرفة الصور الأسطورية المختلفة التي تبلورت فيها شخصية المناضـــل باتريس لومومبا، وقد تبيّـــن أنها جاءت على النحو الآتـــــي : (1) صورة لومومبا التموزي، (2) صورة لومومبا السيزيفي ،(3) صورة لومومبا المسيحي ، (4) الصورة الممزوجة وقد تكونت من:

أ/ الصورة الممزوجة من المسيح وسيزيف.

ب/ الصورة الممزوجة من تموز والمسيح.

مقدمـــــــــــة:

تعد الأسطورة هي الوعاء الفكري الذي أخذ الإنسان من خلاله تفســـير وجوده وعلاقته بالكون والطبيعة ، وهي جوهر تفكير، وتأمل منذ آلاف السنين؛ حيث تحاكي محصلة تجارب الإنسانية، فهي قبل كل شيء تراث تعتز به كل أمة ، وتتناقله من جيل إلى جيل ، وقد جاءت بعض الأساطير في نصوص شعرية، كملحمة جلجامش ، ومأســـاة تموز، وغيرها، كما ارتبطت الأسطورة بالشعر منذ القديم ، الغربي منه والعربي، قديمه وحديثه ، ولـــذا لا نستغرب وجود الأســـطورة في الشعر، ويرجع

توظيف الشعراء العرب لها إلى التبادل الثقافي بين الشعوب ، كما يدل على سعة الثقافة عند الشاعـــــر.

وما يعنينا من هذا كلّه هو ظهور هذا الرافـــد عند رواد الشعر الحديث في ليبيا، الذين وظفوا الأسطورة في نصوصهم، سواء أكان هذا التوظيف عن وعيٍ من الشاعر أم عن غير وعيٍ منه، أي أن الأسطورة تسربت في النص الشعري دون أن يشعر، وقد ركَّزت هذه الدراسة على صور توظيف الشعراءِ الليبيين للمناضل الأفريقي (باتريس لومومبا) أسطوريًا؛ لأجل تحقيق هدف الدراسة ألا وهـــو توضيح آلية ربط الشعراء بين الشخصية الحقيقية والشخصية الأسطورية، ووقْعِ ذلك على ذواتهم، من خلال نعيهم للمناضل الأفريقي باتريس لومومبا، وقد وقع اختيارنا على هذه الشخصية نظرًا لما تعنيه للإنسانية عامة، ولطبقة المثقفين خاصة، أمثال الشعراء الذين أخذوا في رثائها وتمجيدها؛ لأنَّها شخصية ضحت بحياتها دفاعًا عن حق بلادها في العيش الكريم أسوة بغيرها من الشعوب الحرة .

وستقتصر الدراسة على نماذج مختارة لثلاثة من الشعراء الليبيين، وهم : علي الرقيعي ، وحسن صالح ، وخالد زغبية ، حيث ربط هـــؤلاء الشعراء تضحية المناضل الأفريقي باتريس لومومبا بالأساطير وسنلاحظ أنهم وقعوا على أساطير لها بعدها الإنساني ينطبق على الشخصية الثائرة، إذً سنرى في النص الشعري شخصية (باتريس لومومبا الحقيقية) بالإضافة إلى شخصية أسطورية أخرى لها مكانتها عند شعوبها، وستستخدم الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لتحليل النصوص الشعرية، مستنيرة كذلك بالمنهج التاريخي لتتبع شخصية البحث والشخصية المستدعاة، وكذلك بعض إضاءات من المنهج النفسي لمعرفة وقع أثر مقتل لومومبا على نفسية الشعراء.

ووفقًا لهذا تم تقسيم البحث إلى مبحثين :

المبحث الأول : الشخصية التاريخية لباتريس لومومبا والأساطير المستدعاة. ويشمل:

المطلب الأول: الشخصية التاريخية (باتريس لومومبا).

المطلب الثاني: لمحة عن الأساطير المستدعاة الموظفة في شخصية باتريس لومومبا.

المطلب الثالث: أوجه التشابه بين شخصية باتريس لومومبا والأساطير المستدعاة.

المبحث الثاني : الصور الأسطورية لشخصية باتريس لومومبا لدى الشعراء الليبيين، ويشمل :

1) صورة لومومبا التموزي .

2) صورة لومومبا السيزيفي .

3) صورة لومومبا المسيحي .

4) الصورة الممزوجة " تعدد الشخصيات"، وتشمل:

أ/ الصورة الممزوجة من المسيح وسيزيف. ب/ الصورة الممزوجة من تموز والمسيح.

المبحث الأول ـ الشخصيـــة التاريخيـــة لباتريـــس لومومبا والأساطـــير المستدعـــاة

تُعد الأساطير هي إحدى الوسائل الفنية التي يلجأ إليها الشاعـــر في نصه الشعري ، وهو لا يأتي بها لمجرد الزخرفة أو البهرجة الفنية؛ إنما يأتي بها ليدعم الفكرة العامة في النص الشعري، وقد كثر استخدامها عند شعراء الشعر الحديث (الشعر الحر) أمثال السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور وغيرهم ، والتوظيف بشكل عام يدل على سعة ثقافة الشاعر الحديث، وتفاعله مع الرافد الغربي، فأغلب الشعراء تأثروا بشعر الشاعر الإنجليزي (إليوت) في قصيدته (الأرض الخراب)، وقد ركَّز الشعراء عليها لما لها من قدرة على تغيير الواقع حسب اعتقاد شعوبها؛ حيث تعني "مجموعة الحكايات الطريفة المتوارثة منذ أقدم العهود الإنسانية، الحافلة بضروب الخوارق والمعجزات، التي يختلط فيها الخيال بالواقع، ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية بعالم ما فوق الطبيعة، من قوى غيبية اعتقد الإنسان الأول بألوهيتها، فتعددت في نظره الآلهة تبعاً لتعدد مظاهرها المختلفة ..." [1] .

وتعد الأسطورة من أهم أدوات رسم الصورة الشعرية، وتساهم في إثراء النص الشعري، والشاعر عندما يوظفها في نصه لا يأتي بها لشهرتها، بل لغرض إثراء نصه وتأكيد فكرته، لذلك لا بد من وجود رابط بين التجربة الشعرية للشاعر والأسطورة المستدعاة فيها؛ أي لا بد من وجود رابط موضوعي يربط بينهما، فينبغي على الشاعر أن يستوعب الأسطورة ويدرسها دراسة جيدة؛ حتى لا تؤثر سلبًا على تجربته الشعرية، وإذا أخطأ الشاعر في التوظيف سيحدث انفصالٌ بين النص وقائله فـ((الأسطورة مثل أي رمز لغوي، ليست شعرية بحد ذاتها، بل تصبح كذلك إذا استخدمها الشاعر بطريقة خاصة من خلال رؤياه الشعرية)) [2]. وشعراء الشعر الحديث عندما أخذوا في توظيف الأساطير جاء توظيفهم لها كإشارة، ثم انتقلوا إلى توظيفها كرمز ساهم في رسم صورة موحية تسيطر على القصيدة كلها من خلال الربط بين القصيدة والأسطورة المستدعاة، فينشأ عن هذا الارتباط صورة خيالية، لكنها أكثر واقعية من الواقع نفسه.[3]

المطلب الأول ـ الشخصية التاريخية (باتريس لومومبا):

إن شعراء الدراسة وظفوا في نصوص رثائهم للمناضل باتريس لومومبا ثلاثة أساطير، هي: أسطورة تموز، أسطورة سيزيف، أسطورة المسيح، وقبل الخوض في أوجه التشابه بين الشخصيتين الحقيقية والأسطورية، سنعطي أولاً نبذة مختصرة عن كل الشخصيات، ولنبدأ أولاً بشخصية البطل باتريس لومومبا : (4)

ولد باتريس لومومبا عام(1925م)، وهو أول رئيس وزراء منتخب في تاريخ الكونغو، ، وهو من أسرة متوسطة الدخل ومع ذلك فإن الظروف كانت في صالحه عندما نال قسطًا من التعليم أثناء عمل والده في التعليم، خاصة بعد أن منع المستعمر البلجيكي التعليم عن أبناء الكونغو فمارس بحقهم أشد أنواع التعذيب، ومن خلال عمل لومومبا شاهد وعانى أقصى صور الفصل والتمييز العنصري بين المستعمِر الأبيض والمُستعمَر الأسود، فكل هذه الأفعال وغيرها حركت وجدان المناضل باتريس لومومبا ضد الاستعمار، فدعا إلى توحيد القبائل الكونغولية، والقوى الوطنية؛ لأجل نيل الحرية والتخلص من المستعمر البلجيكي الذي جثم على بلاده قرابة الثمانين عامًا.

وبمرور الوقت استطاع لومومبا أن يحشد العديد من الأنصار فحاول المستعمر الوقوف في وجهه وذلك عن طريق تلفيق تهمة له بسرقة دخل البريد، وزُج به في السجن، وبعد خروجه من السجن قرر الدخول في العمل السياسي والتفرغ له، فشارك في مؤتمر أكْرَا، الذي استطاع عن طريقه نقل قضية بلاده إلى الساحات الدولية والإقليمية، فوجه أنظار العالم لقضية بلاده الأمر الذي دفع قوات المستعمرِ البلجيكي إلى اعتقاله وسجنه؛ لإنهاء دوره القيادي، ولكن شعبه لم يسكت عن ذلك فخرج لومومبا من السجن وذهب في طائرة خاصة لحضور مؤتمر المائدة المستديرة المقام في المدينة البلجيكية (بروكسول) حول مستقبل بلاده، ونتج عن هذ المؤتمر الاتفاق على إقامة انتخابات ديمقراطية في البلاد، وفعلاً تمت الانتخابات وتحصل حزب لومومبا على أعلى نسبة أصوات فيها وتم تعيينه كأول رئيس وزراء منتخب في البلاد عام 1960م.

أراد لومومبا تحقيق الأمان والاستقرار في البلاد ؛ لكن المستعمر كان له بالمرصاد فلم تنعم الكونغو بالاستقلال سوى أسبوعين فقط ، وبعد ذلك بدأت الاضطرابات في البلاد، فطلب لومومبا قوات دولية من الأمم المتحدة لتحقيق الاستقرار فأرسلت له 200 ألف جندي ، لكن دون جدوى؛ حيث ازدادت الاحتجاجات وازداد الأمر سوءًا، وأمـــــر رئيس الجمهورية بعزله من منصبه ، فطلب لومومبا الحماية من قوات الأمـــن لكنها تجاهلت أمره ، فذهب إلى شمال البلاد حيث يتواجد أنصاره وطلب الحماية منهم ، ولكن

أقرب أقربائه (موبيتو سيسي سيكو) رئيس أركانه استولى على السلطة ولم يكتف بذلك ؛ بل قبض عليه وسلّمه إلى أعدائه البلجيكيين لقتله عام (1961م) ، حيث اعْتُقِلَ مع رفيقيه ووضعوا في سيارة نقلتهم إلى إقليم كاتنكا، فقتل رفيقيه أولاً ثم قُتل لومومبا رميًا بالرصاص، ولم يكتفوا بقتله بل قاموا بتقطيعه وتذويبه في حوض مليء بالأحماض حتى يتخلصوا من جثته.

المطلب الثاني ـ لمحة عن الأساطير المستدعاة الموظفة في شخصية باتريس لومومبا:

تبين من خلال البحث أن الأساطير المستدعاة في توظيف شخصية المناضل باتريس لومومبا هي ثلاث أساطير، وفيما يأتي نبذة مختصرة عن هذه الأساطير:

1- أسطورة الإله تموز : تعد هذه الأسطورة من الأساطير القديمة لحضارة بلاد ما بين النهرين، وهي تعود تحديدًا للحضارة السومرية، وتدور أحداث هذه الأسطورة (الإله تموز) حول سحبه إلى العالم السفلي بعد أن غدرت به حبيبته (إنانا عشتار) مقابل خروجها إلى العالم الأعلى، فتسلمه إلى شياطين (كالا) فيقتادونه أسيرًا إلى العالم السفلي وينهالون عليه بالعديد من الأسلحة حتى الموت، وبعدها تندم عشتار على ما فعلته بحق حبيبها تموز، ويُحكم عليها بالبكاء على زوجها تموز كل عام، [5] ((ويبدو أن غيابه عن الوجود قد أصاب الحياة بشلل عام، وكاد يهددها بالفناء))، [6] فالمعروف أن تموز يتمثل في الطبيعة فيعد فصل الربيع احتفالاً بظهور تموز وزواجه من ألهة الخصب عشتار(إنانا)، وتظهر مظاهر الربيع بخضاره وأزهاره تعبيرًا عن هذا الفرح، ويستمر هذا الفرح إلى حين موت تموز في شهر يوليو أي بدخول فصل الصيف وبداية الجدب باختفاء معالم التجدد والعطاء، فيختفي بذلك موسمي الصيف والخريف، ثم يعود للحياة من جديد في فصلي الشتاء والربيع وهذا هو معتقد بلاد الرافدين الذين كانوا يقيمون طقوس الفرح أو الزواج المقدس، احتفالاً بعودة تموز، كما كانوا يقيمون طقوس الحزن الجماعي بعد موته. [7]

2- أسطورة سيزيف: المعروف أن أسطورة سيزيف وردت في الأساطير اليونانية وملخصها هو أن سيزيف تمرد على الآلهة فعاقبته بإنزاله إلى الجحيم، وأنزلت بحقه العذاب، والمتمثل في دحرجته لصخرة كبيرة ليصل بها إلى أعلى قمة الجبل ثم تسقط مرة أخرى، وظل سيزيف في ظل هذا العذاب لفترة طويلة، يدحرج الصخرة إلى منتصف الجبل وتسقط وهكذا استمر على هذا الحال حتى استطاع التحايل على الآلهة وخرج من العالم الأسفل وارتاح من العذاب الذي سُلِّط عليه. [8]

3- أسطورة صلب المسيح : تعد أسطورة صلب المسيح من الأساطير المعروفة في التراث الديني عند أصحاب الديانة المسيحية في أسفارهم، وليست الواردة في القرآن الكريم، وتتمثل قصته في عطفه على المرضى والمحتاجين والفقراء، وكرهه للأغنياء باعتبارهم مستغلين للناس، وتضحيته من أجل البشرية؛ للتكفير عن خطاياهم في حق الرب، وكان له اثنا عشر تلميذًا، فقام أحدهم واسمه يهوذا بتسليمه لأعدائه مقابل ثلاثين شقلاً* من الفضة، وبعدها ندم يهوذا على فعلته وشعر ببشاعة وفداحة ما فعله بحق المسيح، فذهب إلى الشيوخ والكهنة وأعطاهم الفضة ثم ذهب وشنق نفسه تكفيرًا عن فعلته.(9)

المطلب الثالث ـ أوجه التشابه بين شخصية باتريس لومومبا والأساطير المستدعاة:

من خلال دراستنا للنص الشعري لكل شاعر من شعراء الدراسة تبين لنا أن الشعراء الذين رثوا أو حزنوا لموت لومومبا وعبروا عن ذلك الحزن في أشعارهم قد وظفوا بعض الأساطير كأسطورة تموز، وأسطورة سيزيف، وأسطورة صلب المسيح، فنلاحظ أن هذه الأساطير تتشابه مع شخصية باتريس لومومبا من حيث :

1- إن لومومبا بطل نبيل يتمتع بسمو الأصل، فهو ابن عائلة لها مكانتها في بلاده، وهو في هذا يتساوى مع تموز الإله من حيث المكانة في بلاده.

2- يدعو لومومبا للحرية والتسامح ويعطف على الفقراء، ويتحسس آلامهم، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية بين الناس، وهو هنا يتشابه مع المسيح المصلوب الذي دعا إلى كل ذلك وصلب لأجله.

3- أحيا لومومبا الناس بأفكاره عندما أيقظهم من سباتهم وغفلتهم وحثهم على الالتفات إلى واقعهم والنظر إلى مستقبلهم ومستقبل أبنائهم، وهو في هذا يشبه المسيح أيضا فالمسيح كان يحيى الموتى حقيقة ويشفيهم حقيقة، ولكن لومومبا أحياهم مجازًا، فأيقظ الأفكار والمباديء في نفوس شعبه حتى يؤمنوا بقدرتهم على تغيير واقعهم؛ أي أنه أعاد ثقتهم بأنفسهم.

4- التشابه في النهاية بين المسيح المصلوب ولومومبا، صُلب المسيح لأجل قضيته التي آمن بها، وهي السلام والتسامح والعدالة بين البشر، وقُتل لومومبا لأجل قضيته التي آمن بها وهي الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة، فحادثًا القتل الذي وقع للشخصيتين كان تضحيةً منهما حتى يعيش الناس.

5- الغدر من أقرب الأقارب هو الصفة التي تشابهت فيها بعض الأساطير المستدعاة مع الشخصية الحقيقية، فعشتار غدرت بتموز مقابل خروجها من العالم الأسفل، ويهوذا تلميذ المسيح يغدر بالمسيح ويسلمه لأعدائه ليصلب، وموبيتو سيسي سيكو يقوم بخيانة لومومبا ويسلمه لأعدائه ليقتل.

6- الصبر وقوة الإرادة والتحمل صفات تتشابه بين الأساطير المستدعاة ولومومبا، فتموز صبر على ما فعلته به عشتار، وتحمل العذاب الذي تعرض له على يد (كالا) في العالم السفلي، والمسيح في أسطورة الصلب تحمل العذاب حتى صلب، وسيزيف تحمل عذاب الآلهة حتى تحايل عليها وخرج من الجحيم الذي وضع فيه، ولومومبا صبر وتحمل العذاب حتى نالت بلاده الاستقلال، ثم تحمل العذاب من جديد حتى مقتله بطريقة مجهولة ومؤلمة في الوقت ذاته.

7- الحزن الجماعي الذي يعقُب موت البطل هو نقطة تشابه بين أسطورة تموز وباتريس لومومبا، فالحزن في أسطورة تموز متمثل في حزن الطبيعة في بعض الأشهر، وفي لومومبا ظهر الحزن عند سماع العالم بموته فأخذوا يرثونه بأشعارهم وكتاباتهم، والبعض الآخر عبر عن حزنه باستهجانه لهذه الطريقة البشعة في قتله.

8- الدهاء والتحايل صفة مشتركة بين أسطورة سيزيف ولومومبا، فسيزيف استخدم الدهاء حتى خرج من العذاب الذي كان فيه، ولومومبا استعمل الدهاء عندما خرج بقضية بلاده إلى المحافل الدولية والإقليمية، فشد أنظار العالم إلى قضية بلاده وتحصل على استقلالها.

المبحث الثاني ـ الصور الأسطورية لشخصية باتريس لومومبا لـــدى الشعراء الليبيين:

تعددت صورة لومومبا لدى بعض الشعراء الليبيين في بداية الستينيات من القرن الماضي، فأخذوا يضفون عليه العديد من الصفات الأسطورية حتى تشابه واشترك معها في عدة نقاط، ولم يكن استدعاؤهم، أو توظيفهم لهذه الأساطير بطريقة مباشرة أو إشارة إليها فقط، بل جاء التوظيف بطريقة رمزية في بعض الأحيان لا يفهم إلاَّ من خلال سياق النص الشعري والتمعن فيه، وهذا يدل على قدرة الشعراء الليبيين وبراعتهم في طريقة تناولهم وتعاملهم مع الأساطير خدمة للنص الشعرى حتى يصل للفكرة العامة له .

1) صـــــورة لومومبا التموزي: ونقصد به تحول الشخصية الحقيقية إلى شخصية أسطورية عن طريق إضفاء ما تتمتع به الأسطورة (تموز) من صفات على الشخصية الحقيقية (لومومبا) ، ونجد هذا التوظيف عند شعراء الدراسة، فلومومبا عند الشاعر علي الرقيعي هو البطل المخلص لأهل الكونغو من الاستعمار، وهو من يحمل الخصب

والنماء لبلاده بعد جدب، فالشاعر يصور حال الكونغو إبان الاستعمار البلجيكي الذي نكلَّ بشعبه وجعلهم عبيدًا عنده، وزج بهم في السجون، ثم يشرع الشاعر في تصوير البطل المنقذ الذي غير حال الكونغو فهذا البطل ظهر من رحم المعاناة؛ لينقذ شعبه وقد أصبغ على بطله ملامح تموزية تمثلت في الخصب والنماء الذي زرعه لومومبا لشعبه بعد معاناة مع المستعمر البلجيكي يقول الشاعر: (10)

كنت لا أملك إلاَّ سلسلة
وليال كالحات مثقلة
بمصيري المجدب
ألثم الأيدي التي امتصت دمائي
والتي انهارت عليها كبريائي
أنحني للقدم الدامي الذي أودى أبي
ذات يوم وأنا في قبضة الجلاد أعمى
وحديد الغل يدمي منكبيا
كنت وحدي لا أملك من أمري شيا
غير أن الفجر شق الليل وانهال عليا
بغتة عبأ آفاقي نجوما
بغتة حل وثاقي عن يديا

.....

فإذا الكونغو بحيرات ضياء تترقرق
وإذا روحي من سجن الليل تتدفق
وإذا الشمس على صدري تصلى
تحمل الخصب لأجلي
تزرع النوار في درب الرياح البربرية

يلاحظ من النص السابق توظيف الشاعر لصفات تموزية على بطله؛ لغرض التخفيف من حجم الفاجعة (موت لومومبا) على نفسه، والرفع من شأن بطله الذي تآمروا عليه ثم غُدر به، فالشاعر صور حال الكونغو قبل لومومبا وحالها بعد ظهوره، ، كأنه وجد في تمـــوز معادلاً موضوعيًا لبطله الذي رفض موته، ولذلك لجأ إلى تموز ليعيد الحياة له ولنفسه، فالمعروف أن أسطورة تموز تحاكى البعث والخلود، أي: الموت ثم البعث من جديد، المتمثل في الخصب والنماء، ولومومبا كذلك مات لكن أفكاره ومبادئه ستظل

حية في نفوس مناصريه وعقولهم، فمن خلال استدعاء الشاعر لأسطورة تموز نجد اختباء شخصية الشاعر خلفها؛ ليستجمع قواه، فاستدعى الإله تموز من خلال استعماله لآلية الاستدعاء بالدور، فهو لم يصرح باسم تموز، وإنما اكتفى بالإشارة إلى دورها فقط، فدلالة الموت والبعث، ومفردات الخصب من ((**زرع النوار"** و " **شمس تشرق"** و " **فجر يبزغ"** كل ذلك يستدعي عشتروت التي ابتعثت تموز زمن رقدته ليملأ الدنيا خصبًا، وقد جاءت آلية الاستدعاء مواكبة لما يقصده الشاعر؛ حيث جعل من لومومبا تموزًا آخر، وجعل من دولة الكونغو عشتارًا أخرى يحيها بعد موتها، ولاشك أن الشاعر هنا لا يخرج عن دائرة شعراء الشعر الحديث، الذين تأثروا بالأساطير، فهو ليس منبتًا عن واقعه الثقافي والأدبي؛ أي أنه يمكن أن نعده متأثرًا بالشاعر بدر شاكر السياب الذي كان لا يعمد إلى ذكر الأسطورة بشكل مباشر في نصه بل يكتفي باستجلاب صفة من صفات شخصيته الموظفة في نصه.

وجاءت أسطورة لومومبا التموزي عند حسن صالح كوسيلة لإحيائه وبعثه من جديد ففي قصيدته عن لومومبا بعنوان " إهداء إلى مناضل كنغولي" يخاطب بطله لومومبا الذي شبهه بالفارس الصامد : (11)

يا فارسًا معفر الجبين بالجراح
يا صامدًا في وجه ليل الموت والرياح
عيناك عبر ليل الكونغو توقظ الصباح
وتزرع السهول والوديان غابة من السلاح

إن الشاعر يحلم ببعث البطل وعودته من جديد، ويبحث عن من يتبنى أفكار باتريس لومومبا المنادية بالحرية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، والوقف في وجه الإمبريالية العالمية، فيلجأ إلى تموز (إله الخصب)، ويظهر تموز بصورة رمزية في عبارة **(وتزرع السهول والوديان غابة من السلاح)**، وبالرغم من أن تموز هو الجالب للخير والنماء لهذه الأرض، إلاَّ أن الشاعر تلاعب بالأسطورة، فقلب مضمونها الذي يعني زراعة الخصب، فزرع عن طريقها النضال المتمثل في الكفاح المسلح؛ كي ينتصر الإنسان المعاصر على قوى الشر والظلم، فتغدوا الحياة أكثر عطاء وحرية، فهو هنا قد أراد بعثًا فكريًا ثم جسديًا .

وفي مشهد آخر من القصيدة ذاتها نرى الشاعر حسن صالح يُسقط حلم ولادة البطل الأسطوري التموزي على الجيل القادم، فهو يريد بطلاً مثل لومومبا بأفكاره ومبادئه،

ويحمل صفات تموز الباعث للخير والنماء، وصفات المسيح الذي يطعم الناس من الخيرات التي جلبها تموز، وفي هذا إشارة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في الكونغو بواسطة باتريس لومومبا، وهو يريد بطلاً يخرج من السجون يغير واقع الكونغو آنذاك، ويزرع بها الحب والسلام: (12)

يا فارس أطفال (كيفو) جائعون
صفر الوجوه ضامروا البطون
لكنهم إليك ينظرون ويحلمون
بفارس عيناه نجمتان يبعث من غياهب السجون
يزرع أرض الكنغو بالسلام
والحب والزيتون

إن حلم عودة البطل لم يكن حلم الشاعر فقط، بل أسقطه على أطفال الكونغو؛ حتى يبعث الأمل والطمأنينة فيهم، وقد ركَّز على الأطفال لأنهم عماد المستقبل، فهم لديهم الاستعداد الفطري للتعلم باعتبار أنهم خامة يمكن التحكم بها وصقلها بالأفكار الثورية شيئًا فشيئًا، كما يلاحظ تركيز الشاعر على أن يكون البطل من السجن، وفي هذا دلالة على أن الأبطال والقادة يخرجون من رحم المعاناة، كذلك جاء تحديد المكان (السجن)؛ لأنه الصفة المشتركة بين أسطورة تموز الذي سجن في العالم السفلي، وأسطورة المسيح الذي تعرض للسجن والتعذيب ثم صلب، والشخصية الحقيقية لومومبا الذي تم سجنه وتعذيبه، فمن خلال هذا المزج بين الأساطير نجد الصورة عند الشاعر تتمثل في بحثه عن السلام الشامل للكونغو.

وفي القصيدة ذاتها أيضًا ينتقل الشاعر إلى مرحلةِ تَحول لُومومبا إلى بطل تموُّزي أسطوري:(13)

يا مشعل النهار
في ليل إفريقيا ويا أغنية الثوار
يا فارسًا لم يعرف الفرار
عيناك تزرع الربيع في القفار
وتمنح الحياة والأوراق للأشجار

حَوَّل الشاعر في هذا النص بطله باتريس لومومبا إلى بطل تموزي قادر على تغيير الواقع، وحين يموت يعود للحياة من جديد فلا ينتهي بطل حتى يولد بطل جديد، وفي هذا إشارة لعدم نهاية النضال في الكونغو، فالبطل التموزي قادر على الانبعاث من جديد فيزرع الخصب والنماء، كذلك لومومبا سوف يبعث من جديد، ليس في بلاده فقط، بل في كل أنحاء إفريقيا.

من خلال الصورة الأسطورية للبطل التي عرضها الشاعر حسن صالح نلاحظ أنه فجر أسطورة تموز، واستطاع بناءها من جديد خدمة لنصه؛ حيث تدرج في توظيفه لصورة البطل التموزي مُتخذًا من جمل النداء في قوله: **" يا مشعل النهار " " يا أُغنية الثوار" " يا فارسًا لم يعرف الفرار"** منحنىً نفسيًا يعبر من خلاله عن توهج الأسى والقلق في نفسه، الناتجين عن صدمته بموت لومومبا، فالشاعر مع كل تكرار يفتح حديثًا عن محنةٍ أكبر، يبدأ في سردها، مستعينًا بما يمنحه له التكرار من وقع مؤثر، فمرت عملية إحيائه للومومبا التموزي بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة إحيائه فكريًا عند المناضلين بالكلمة والسلاح.

المرحلة الثانية: مرحلة إحيائه وولادته عند أطفال الكونغو.

المرحلة الثالثة: مرحلة تحول لومومبا إلى بطل تموزي في إفريقيا.

2) صورة لومومبا السيزيفي: لقد اتخذ أغلب شعراء الشعر الحديث من أسطورة سيزيف رمزًا للعذاب الأبدي، والإرادة والصبر لأجل الوصول إلى الهدف أو الغاية المنشودة، ومنهم الشعراء الليبيون، أما توظيف أسطورة سيزيف في شخصية المناضل باتريس لومومبا في الشعر الليبي فلا نجده إلاَّ عند الشاعر خالد زغبية، وذلك عندما أسقط واقع نهاية بطله لومومبا على نفسه في قصيدة "" **أغنية إلى سيزيف**""؛ حيث جاء في مقطع منها قوله: (14)

سيزيفي قد خر صريعا

سيزيفي قد بات قتيلا

والصخرة حطت عند السفح

وصور الشاعر نهاية لومومبا بأسطورة سيزيف بالرغم من أن الأسطورة تقول بأن سيزيف انتصر على الآلهة ونجى من عقابها المستمر، إلاَّ أن الشاعر تصرف في مضمونها وقلبها فأعطت نتيجة مغايرة لما هي عليه في أصلها، فسيزيف الشاعر قد مات وبموته انتهى كل شيء، فبطريقة رمزية استطاع الشاعر أن يصف الحالة النفسية له، ولكل من أحب لومومبا وآمن بمبادئه ومعتقداته التي رمز لها بالصخرة ، فكأنه أراد

القول: أنه بموت لومومبا قد انتهى كل شيء في الكونغو، فاستدعاؤه لسيزيف جاء تعبيرًا عن الحالة النفسية التي يمر بها نتيجة صدمته بموته، وموت سيزيف يعني موت الإرادة بداخله؛ حيث انهار الشاعر وخارت قواه عند موت لومومبا الذي كان كسيزيف بالنسبة له.

ومن الملاحظ أيضًا أن الشاعر منذ البداية كان يحتاج إلى دعم نفسي، وهذا واضح من عنوان القصيدة التي نعى بها باتريس لومومبا (**أغنية إلى سيزيف**)، إذ إن إيراد اسم " سيزيف" في العنوان الشعري لا يجعل منه مُجرد اسم أو إشارة تقتصر على مدلولها الحرفي فقط، بل هو أداة نافذة للرؤية والتعبير، تحفل بالعديد من الإحالات التي لا تنتمي إلى التجربة الخاصة فحسب، وإنما تنفتح أيضًا على تجارب الآخرين عبر الزمان والمكان.

3) صورة لومومبا المسيحي : إن شعراء الشعر الحديث أخذوا في توظيف أسطورة المسيح الواردة في الأسفار؛ نظرًا لما تحمل من دلالات ترمز للتضحية والفداء، والمساواة والعدالة الاجتماعية، والظلم والتسلط، ((فالمسيح لا يموت من أجل الموت لكنه يموت كي يهب الحياة للآخرين)) [15].

ونجد أن صورة لومومبا المسيح المصلوب عند الشاعر خالد زغبية مشابهة لصورة المسيح المصلوب في أسفار التوراة حيث يقول في القصيدة نفسها "أغنية إلى سيزيف": [16]

بات مسيحي
يبث شجونه
للدنيا تشتاق عيونه
في زنزانة
كالقبر المعتم
كالقبو المظلم
والقضبان
رباه أمست صلبان

يصوّر الشاعر حالة بطله في لحظاته الأخيرة عندما اعْتُقِلَ وزُجَّ به في السجن فشبهه بالمسيح حينما قُبض عليه، وصلبه أعداؤه، فكأنه أدرك نهايته المحتومة بالقتل فاستسلم لقدره ورضي أن يكون مسيحًا يضحي بنفسه من أجل أن تحيا بلاده الكونغو، كما يمكن أن نضيف أيضًا أن المكان ساهم في خلق جو نفسي كئيب ألقى بظلاله على الصورة

المأساوية التي رسمها الشاعر لبطله والتي تنطبق مع أسطورة المسيح المصلوب، وتتوافق مع تجربة الشاعر الشخصية من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن ورود المكان مصادفةً بل جاء نتيجة ملاءمة الجو النفسي للقصيدة مع الحالة النفسية المتأزمة للشاعر؛ لأن المكان يرتبط بالشخصية ارتباطًا عضويًا، فلا يمكن أن تتحرك الشخصية وتضطرب دون حيز ومكان، ولهذا وظَّف الشاعر المكان " **الزنزانة** " لدلالته على معاناة الشخصية ومحنتها، فظهرت تجربته الشخصية فيما مضى واضحة في النص؛ حيث رسم هذه الصورة عن واقع تجربة نفسية عاشها في السجن نتيجة كتابته لقصيدة عام (1958م) بعنوان " **بلادنا** " عبر فيها عن ذهاب خيرات بلاده للمستعمر الدخيل بينما أبناء وطنه يتضورون جوعًا، [17] ، فمن خلال التجربة التي عاشها الشاعر في السجن نراه يصف المكان بمرارة وحرقة حينما صور السجن بالقبو المظلم، كناية عن المكان الضيق، كما توحي عبارة (**القضبان أمست صلبان**) بعدم نجاة البطل من نهايته المحتومة وهي الصلب.

وفي القصيدة ذاتها نجد الشاعر يرمز للوموميا بالمسيح فيقول : [18]

كان " الكونغو" ينوح
يهطل بالحزن
كالديمةِ
أواه قد صلب مسيح

إن الصورة التي رسمها الشاعر في هذا النص هي صورة الحزن الجماعي الذي حل بالأرض والسماء بعد مقتل لوموميا، فهو مسيح في نظر الشاعر صاحب الأيدولوجية الاشتراكية، وجاءت نهاية بطله مشابهة لنهاية المسيح فضحى بحياته دفاعًا عن إنسانية الإنسان، وصورة الحزن الجماعي تدل على أن الشعوب المتعطشة للحرية والتي تعاني من الظلم والاستبداد قد حزنت على موت هذا الثائر المغدور، وهو في هذه الصورة (صورة الحزن)؛ أي: حزن الناس على المسيح المصلوب تتشابه في ذلك مع أسطورة تموز، وما صاحبها من حزن جماعي على موته في النصوص السابقة.

4) الصورة الممزوجة " تعدد الأساطير" : وفيها يتم توظيف الشاعر لأكثر من أسطورة في نصه؛ ليخرج بصورة جديدة لبطله الأسطوري، وقد جاءت على صورتين :

أ/ الصورة الممزوجة من المسيح وسيزيف:

ويمكن ملاحظة هذا عند الشاعر خالد زغبية، حين يستمر في قصيدته السابقة في رسم حالته النفسية مبينًا كيف قتل لومومبا (سيزيف) حقيقة في محاولة منه لاستعادة توازنه النفسي في تقبل موت بطله: (19)

سيزيفي ما مات شريدا
سيزيفي ما عاد وحيدا
في كونغويا
ألف مسيح
ألف سيزيف كونغولي
ما زالوا صبرا
كالصخرة
يرنون شوقًا للقمة
في غابات الكونغو الحرة

يلاحظ من النص محاولة الشاعر استعادة توازنه النفسي فيقول إن لومومبا السيزيفي لم يعد وحيدًا؛ أي: أن موت لومومبا لا يعني النهاية، بل بداية لاستكمال مسيرة النضال التي بدأها لومومبا، ففي بلاده الكونغو يوجد ألف مسيح، وألف سيزيف على استعداد دائمًا للتضحية، حتى تفتك الكونغو حريتها من الاستعمار وأعوانه.

ونتيجة للحالة النفسية التي يمر بها الشاعر خالد زغبية نراه يعلن تارة عن موت لومومبا عن طريق موت الإرادة التي رمز لها بـــ(سيزيف)، فبمجرد موته ماتت معه الكونغو، وتارة أخرى يستجمع قواه ويُحاول أن يتكيف نفسيًا مع حقيقة موته، حينما يستحضر صورة المسيح لما لها من دلالة وقدرة على البعث والإحياء، فيستخدمها لغرض إحياء سيزيف لومومبا القابع في نفسه من ناحية، والقضاء على رغبة الانتقام في نفسه من ناحية أخرى؛ حيث إن المسيح يمثل التسامح والتعايش الإنساني وهذا ما نراه واضحًا في خطاب الدموع والدم والنار الذي ألقاه باتريس لومومبا عام (1960م) حيث يقول: ((أطلب منكم الاحترام اللامشروط لحياة وملكيات إخوانكم المواطنين والأجانب الذين استوطنوا بلادنا، إن كان سلوكهم دون المرغوب، فعدالتنا ستطردهم مباشرة من أراضي الجمهورية؛ وإن كان سلوكهم حسنًا فيجب تركهم بسلام فهم أيضًا يعملون على ازدهار بلادنا)). (20)

ب / الصورة الممزوجة من تموز والمسيح :

ويظهر هذا النوع من الصورة الممزوجة عند الشاعر حسن صالح عندما يصور بطله الجديد لومومبا فيخرج بصورة جديدة تختلف عن الصور السابقة فيجمع بين ملامح أسطورة الإله تموز، وملامح أسطورة المسيح فيقول : (21)

الفارس الذي عيناه نجمتان
الفارس الذي بالأمس كان
يزرع أرض الكنغو أقحوان
يمسح عن جبينها الآلام والأحزان
يوقظ في أوغالها كرامة الإنسان
دماؤه تقطر والسياط
تشرب من عروقه ويكرع السجان

لقد أراد الشاعر أن يجمع في شخصية بطله الأفريقي بين دعوته إلى التحرر والنماء، ودعوته للتسامح، فشبه أفعال لومومبا بأفعال أسطورة الإله تموز؛ الذي بعودته تنبعث الحياة من جديد فيحول الأرض الجرداء إلى حقول خضراء، وكذلك كان لومومبا يبعث الأمل لشعبه في الخلاص من المستعمر، ولم يكتف الشاعر بهذا بل نراه يضفي على بطله صفات المسيح المتمثلة في تخفيفه لآلام الناس ومعانتهم من المرض والفقر والوقوف بجانب الضعفاء والمحتاجين، ودعوته إلى المساواة بين البشر، فكأن أفعال بطله تُجاه شعبه كانت كأفعال المسيح، وقد تعرض للضرب والتعذيب من قبل معارضيه، وكذلك حصل لباتريس لومومبا عندما اختطف من قبل الدول الاستعمارية وتعرض للتعذيب أثناء اعتقاله ثم قتل، وقد صور الشاعر عن طريق الاستعارة التشخيصية طريقة التعذيب بإصباغ صفة من صفات الكائن الحي على السياط حينما ينهال على ظهر الضحية تمامًا، كما ينهل الكائن الحي الماء ليشرب من شدة العطش، كذلك تفيد هذه الصورة بيان شدة التعذيب الذي تعرض له لومومبا وتكراره ، وملازمته إياه طيلة فترة اعتقاله إلى حين مقتله.

أيضًا الفعل يكرع يُوحي بإنزال الشاعر للسَّجان من المستوى البشري إلى المستوى الحيواني، فالكرع يعني الشرب بدون اليد أو الإناء، بل وضع الفم على موضع الشرب مباشرة، والموضع هنا جسد الضحية أي أن السَّجان أصبح حيوانًا مفترسًا يعيش على دماء ضحاياه.

كما يمكن ملاحظة أن استدعاء الشاعر لأسطورة تموز جاء لدعم الصورة التشبيهية لصفات لومومبا، بينما جاء توظيفه لأسطورة المسيح لدعم الصورة الإنسانية للومومبا من ناحية، وتصوير النهاية المشتركة بينهما من ناحية أخرى.

الخاتمة:

من خلال الدراسة توصل البُحَّاثُ إلى النتائج الآتية:

1- تركيز شعراء الدراسة على الأساطير التي توحي بالبعث والإحياء والخصب والنماء والصبر والإرادة؛ وذلك نتيجة توافق الحالة النفسية للشعراء مع شخصية لومومبا والأساطير المستدعاة.

2- نتيجة للواقع المجدب في وطنهم، وعدم ظهور أي بطل في تلك الفترة جعلهم يلجؤون إلى تمجيد البطل لومومبا الذي تشابهت قضيتهم مع قضيته، فاستندوا على الأساطير لإحياء موت الإرادة داخلهم.

3- يلاحظ أن شعراء الدراسة استوعبوا الأسطورة واندمجوا بها مع ذواتهم ثم أحيوها في نصوصهم الشعرية، وهذا يدل على حس فني وإنساني عالٍ عند هؤلاء الشعراء، فانتقلوا بها من مجرد إشارة إلى جعلها محورًا رئيسًا في بناء الصورة الفنية لنصوصهم.

4- ركز شعراء الدراسة على صور الأساطير التي ترمز إلى الإحياء والبعث والإرادة، ويرجع ذلك إلى وجودهم في فترة كانت تعج بالانتفاضات، والمد الثوري في البلدان العربية والعالمية التي كانت تقبع تحت وطأة الاستعمار.

5- جاءت صور توظيف الشعراء للأساطير في وصف شخصية باتريس لومومبا على النحو الآتي: 1) صورة لومومبا التموزي، 2) صورة لومومبا السيزيفي، 3) صورة لومومبا المسيحي، 4) الصورة الممزوجة وقد تكونت من أ/ الصورة الممزوجة من المسيح وسيزيف. ب/ الصورة الممزوجة من تموز والمسيح.

6- إن الصراع النفسي داخل ذات الشاعر واختلاف درجة التوتر النفسي فيها عند التفاعل الأسطوري مع شخصية باتريس لومومبا كان وراء ظهور الصور الأسطورية الممزوجة.

الهوامـــــــــــش:

(1) الدكتور أنس داوود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، مكتبة عين شمس، القاهرة، د.ط، د.ت، ص19.
(2) الدكتور يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، دار الآداب، ط1، 1994م، ص339.
(3) الدكتور عز الدين إسماعيل، الشعر العربي الحديث قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، 1994م، ط5، ص 200.
(4) ينظر:
- hassanel badawy.jeeran.com/archive/2..., باتريس لومومبا www.marefa.org/../
ar.wikipedia.org/wiki/- باتريس لومومبا www.marefa.org/../ باتريس لومومبا
(5) ينظر الدكتور فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 1999، ط 1، ص 125، 128، 135.
(6) د. أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، مرجع سابق، ص 114.
(7) د. فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، مرجع سابق، ص 125.
(8) ينظر د. عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية (أساطير البشر)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1992،2م، ج1، 127- 142.
* شقل: وزن. مادة شقل، مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2044م، ط4.
(9) ينظر القس أنطونيوس فكري، إنجيل مَتَّى، ص400.
(10) أشواق صغيرة ، وزارة الإعلام والثقافة، إدارة الفنو والآداب يوليو 1966، د. ط، ص 53.
(11) أغنية العاشق، الكتاب الشهري، العدد التاسع، 1973م، د. ط، ص69.
(12) المصدر نفسه، ص 70.
(13) المصدر نفسه، ص 71.
(14) أغنية الميلاد، أغنية الميلاد، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1986، ط2،ص 93.
(15) الدكتور خلف الله بن علي، جماليات توظيف الأسطورة في القصيدة العربية المعاصرة، مجلة فصل الخطاب، مج 5، ع 19، سبتمبر 2017م، ص 130.
(16) المصدر نفسه،92 - 93.
(17) ينظر: خالد زغبية، ديوان إيقاعات متداخلة، منشورات تنمية الإبداع الثقافي، الجماهيرية، ط1، 2007م، ص15.
(18) خالد زغبية، أغنية الميلاد ص 89 - 90.
(19) المصدر السابق ص 94 - 95.
(20) خطاب الدموع والدم والنار شبكة المعلومات الدولية.
(21) أغنية العاشق ، مصدر سابق، ص 69.

أولًا المصادر :

1- القس أنطونيوس فكري، إنجيل متى.
2- خالد زغبية:
- أغنية الميلاد، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1986، ط2.
- ديوان إيقاعات متداخلة، منشورات تنمية الإبداع الثقافي، الجماهيرية، ط1، 2007م.

3- حسن صالح أغنية العاشق، الكتاب الشهري، العدد التاسع، 1973م، د. ط.
4- علي الرقيعي أشواق صغيرة ، وزارة الإعلام والثقافة، إدارة الفنون والآداب يوليو 1966، د. ط.
5- مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2044م، ط4.

ثانيًا المراجع:

1- الدكتور أنس داوود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، مكتبة عين شمس، القاهرة، د.ط، د.ت، ص19.
2- الدكتور عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية (أساطير البشر)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1992،2م، ج1.
3- الدكتور عز الدين إسماعيل، الشعر العربي الحديث قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، 1994م، ط5.
4- الدكتور فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 1999، ط 1.
5- الدكتور يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، دار الآداب، ط1، 1994م.

ثالثًا الدوريات:

1- الدكتور خلف الله بن علي، جماليات توظيف الأسطورة في القصيدة العربية المعاصرة، مجلة فصل الخطاب، مج 5، ع 19، سبتمبر 2017.

رابعًا مواقع إلكترونية:

- hassanel badawy.jeeran.com/archive/2...,
باتريس لومومبا ar.wikipedia.org/wiki/.
باتريس لومومبا www.marefa.org/../.